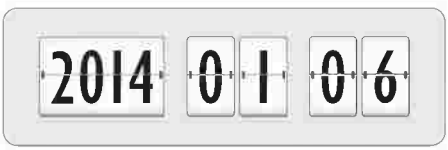

قالت هيلاري بحماسة: سنبدأ اليوم بداية مشرقة بالكلام عن تشلسي، لا أستطيع الانتظار أكثر– يا دكتورة– قبل أن أحدثك عن ابنتي العزيزة، بلا أدنى شك هي الشخص الأهم في حياتي كما في حياة بل.

أنا أيضًا لم أكن قادرة على الانتظار أكثر؛ كنت تواقة للاطلاع على علاقتهما والوقوف على نوعية الأم التي كانتها هيلاري.

تابعت هيلاري الكلام: في وقت مبكر جدًّا من زواجنا بذلنا محاولات كثيفة لنصبح أبوين، كاد إخفاقنا أن يدمرني؛ لم أشعر قط بقدرتي على أن أصبح امرأة كاملة من دون إنجاب، كان ذلك بنظري الإخفاق الأسوأ في حياتي، وكل شهر كلما حل موعد (اللعنة)، كنت أغرق في يأس عميق، لم تبدُ الأمور واعدة؛ في صيف عام 1979م بادرنا إلى ترتيب موعد مع اختصاصي خصوبة شهير في سان فرانسيسكو بعد عودتنا من إجازة قصيرة في برمودا؛ ملاذًا أخيرًا، مباشرة بعد عودتنا وقبل موعدنا مع الاختصاصي، حصلت معجزة المعجزات؛ اكتشفت أنني حامل!

بل وأنا تابعنا معًا دروس لاماز (Lamaze) استعدادًا لولادة طبيعية، أعضاء الصف الدراسي الآخرون كانوا فخورين بكون اثنين من زملائهم هما حاكم ولاية آركنسو وزوجه، تمثل همهم الأول بالحمل، بل وأنا كلانا قارئان نهمان، فاندلقنا على دليل باري بريزلتون (Barry Brazelton) للأبوة والأمومة، تحدثنا عن حملي ليل نهار مع بعضنا كما مع كل من نستطيع حصره في الزاوية، التمسنا النصح من أصدقائنا ذوي الأطفال بل وحتى من ليسوا كذلك، ورحنا نمطر الأطباء، والممرضات، والقابلات بوابل من الأسئلة حتى صاروا يهرعون إلى دورات المياه حين يروننا قادمين، اكتشفت يومًا أن بل كان يتكلم بصوت مرتفع وطاب لي أن أسمعه وهو يطرح أسئلة عن قطتنا.

في السابع والعشرين من شباط/فبراير عام 1980م، بعد ربع ساعة من عودة بل من مؤتمر لحكام الولايات في واشنطن، وقبل ثلاثة أسابيع من موعدي، بدأ طلقي، أقسم بل على أنني كنت بانتظار عودته، لم يسبق لي أن رأيته على هذه الدرجة من الارتباك؛ بدا كأنه هو من كان سينجب مولودًا، كنت هادئة بالطبع، غير أن ذلك لم يدم طويلًا للأسف، وما إن وصلنا إلى المستشفى حتى قيل لنا إن ولادة تشلسي ستكون عسيرة، وسيتعين إخراجها بعملية قيصرية، لن أحظى بولادة طبيعية.

صرخت في وجه الطبيب متسائلة وقلقة حول احتمال تعرض مولودي لأي خطر، حاول الطبيب طمأنتي، إلا أنني لم أقتنع حتى حملت تشلسي بين ذراعيَّ، وأحصيت أصابع يديها الوردية الصغيرة العشر وأصابع قدميها الوردية الصغيرة. على الرغم من أن إحدى الممرضات اعترضت طريقه المفضية إلى غرفة الولادة، فإن بل لم يكن مستعدًا للامتثال لكلامها، أبلغها بأن من شأنها أن تكون قد ارتكبت خطأ فادحًا إذا لم تسمح له بالدخول، وحين احتجَّت زاعمة أن بل قد يغمى عليه لمرآى دمي، رد عليها قائلًا إنها مخطئة، وظل مصرًّا على رؤية ولادة ابنته.

بصرف النظر عن أن بل كان حاكمًا لولاية آركنسو، فإنه رجل عملاق بصوت مدو، فحين يرفع بل صوته فإن أحدًا لا يعرف أنني حتى موجودة في مكان قريب! لم تسمع الممرضة احتجاجي الباهت على استبعاده، أخيرًا سُمح لبل بدخول غرفة الولادة ليمسك بيدي، وعمدت إدارة المستشفى بعد ذلك إلى تغيير سياستها في التعامل مع الآباء الراغبين في المساعدة على ولادة أزواجهم.

بفضل دروس اللاماز، كان بل يعرف ما يتعين توقعه وكيفية مساعدتي بالإمساك بيدي، وفرك ظهري، ومواكبتي في التنفس، ووضع الثلج على لساني حين أعطش، عانى معي مع كل انقباضة شعرت بها، بل وزعق كلما زعقت، يجب أن أقول إنني مستاءة قليلًا لأنه رأى من عملية الولادة أكثر مما رأيت أنا؛ وضع الأطباء حجابًا لمنعي من رؤية الجرح والنزف.

أين الإنصاف في أن أتحمل أنا آلام المخاض كلها، وينعم بل بمشاهدة العملية؟! كان المشهد رائعًا بالنسبة إليه؛ لم يسبق لي أن رأيته بمثل هذه السعادة التي تجلت حين وضعت الممرضة الوليدة التي كانت بوزن ستة أرطال (نحو ثلاثة كيلوغرامات) بين يديه فضمها إلى صدره، كان ذلك أعظم حدث في حياته، لم يستطع بل وضع الوليدة على السرير طوال مدة بقائي في غرفة الإنعاش، ظل يدور بها ويعرضها على أمه، على أصدقاء كان قد دعاهم، وعلى أعضاء جهاز العاملين في المستشفى، راح يغني لها، يكلمها، ويناغيها دندنة، وكما أخبرني فيما بعد فإنه أراد أن تدوم تلك الليلة إلى الأبد.

أما أنا فوجدتني مشرقة جراء الإنجاب؛ «أنجبت طفلة كاملة» كانت الكلمات التي ظلت تتردد في ذهني، وهل من شيء أروع من إيجاد كائن بشري آخر؟

كنا قد اخترنا اسمها في أثناء إجازتنا الميلادية بلندن عام 1978م، بعد سماع جودي كولنز وهي تغني (صباح تشلسي)، كلانا عشق الأغنية وقال بل بفرح: «إذا رُزقنا بابنة دعينا نسميها تشلسي؛ لأن ذلك هو المكان الذي كنا نمشي فيه حين سمعنا الأغنية للمرة الأولى». كانت إذن تشلسي منذ تلك

اللحظة. قلت: حسنًا يا هيلاري، علينا الآن أن نتوقف، سنتابع قصة تشلسي في المرة القادمة.

صرخت بغضب: نتوقف الآن؟! تمامًا لحظة الدخول في أفضل الأجزاء! لماذا تتصرفين هكذا؟ أنت لست محللة؛ أنت سجَّانة؛ ما إن أصل عتبة الأشياء الحقيقية حتى تسارعين إلى حجبي! كنت آسفة لذلك، إلا أنها غادرت، مثل مرضاي الآخرين جميعهم منذ إطلاقي أولى ممارساتي.